

الملل من المحاسن

د. محمد بن إبراهيم الحمد

الملل من طبائع النفوس؛ حيث يعترِبها ما يعترِبها من الضيق، والضجر من جرّاء عمل مكرر، أو انتظار طويل، أو موعد لم يَحِنْ، أو جلوس في قاعة درس، أو مجالسة ثقيل، أو مداومة طعام، أو نحو ذلك من أسباب الملل الكثيرة المتنوعة.

والملل عرض من الأعراض التي تُدرس، وتُبحث في علوم عدة كعلم النفس، وعلم طب الأعصاب، وعلم الأخلاق، وغيرها.

ويُعرّف الملل بتعريفات متقاربة بحسب من يتناولونه؛ فيعرف بأنه فتور يعرضُ للإنسان من كثرة مزاوله شيء؛ فيوجب الكلال منه، والإعراض عنه، والسامة من فعله، والضجر من قربه.

فهو -إذا- ردُّ فعلٍ لأمر تنال نيلها من الإنسان سواء من وقته، أو صحته، أو تحمُّله عموماً.

ويرى الباحثون في موضوع الملل أن القدرة على احتمال المهام المملة تتفاوت من شخص لآخر.

يقول الدكتور جيمس دانكيرت -وهو أستاذ علم الأعصاب الإدراكي في جامعة واترلو في

أونتاريو، ورئيس مختبر الملل فيها-: «أعتقد أن جميع الناس يشعرون بالملل، لكن بعضهم لديهم قدرة مذهشة على التعامل معه».

ويقول: «إن معظم الناس يتوافقون على أن الملل هو أمر غير سار، وغالباً ما يسعون إلى إيجاد

طريقة لوضع حد لهذا الملل».

ويُفرّق الدكتور تايلور أسبي -الأستاذ المساعد في التعليم التنموي في جامعة ولاية سان ماركوس-

بين الملل واليأس؛ فيقرر أن الملل ينطوي على الشعور وكأنك عالق في حالة من الاستياء.

لكنه لا ينطوي على الاعتقاد بأن النجاح أمر مستحيل -كما هي الحال بالنسبة لليأس-.

ويُلمح الدكتور دانكيرت إلى جانب مشرق من الملل؛ فيرى أن المفتاح لتجنب الملل هو ضبط

النفس؛ فالذين لديهم قدرة أعلى على ضبط النفس هم أقل احتمالاً للتعرض للملل -كما يقول-.

ويقرر أنه وُجد في الدراسات أن الملل يميل إلى إلهام الإبداع لدى الأشخاص الذين يعانون من

مستويات عالية من ضبط النفس.

ويذكر بعض الباحثين أن الملل لا يصيب إلا الأشخاص المملين.

هذا وقد انتشر الملل في أماكن شتى في العالم حتى إن بعضهم يصفه بأنه آفة العصر الحديث.

وَيُقَسَّمُ بعض علماء النفس الملل إلى أنواع؛ فمنها: **الملل القياسي**، ويتمثل ذلك في شروذ الذهن، والشعور بأن الإنسان لا يجد شيئاً يفعلُه.

ومنها **الملل التفاعلي**، وهو الذي يمتلك الإنسان من شخص أرغمه على أداء مهمة مملة كالتالي مع المدرس، وكالموظف مع المدير.

وهناك **ملل البحث**، وذلك حينما يكون الإنسان مضطرباً، ويبحث عن أشياء يفعلها للتخلص من الملل.

وهناك ملل اكتشف مؤخراً، وهو **ملل قلة الاكتراث**؛ حيث تشعر أنك لست سعيداً ولا منزعجاً لكنك عاجز عن التخلص من هذا الملل.

ثم إن الناس يتفاوتون في شأن الملل؛ فهناك من يمل من البقاء منفرداً ولو دقائق أو ساعات على حين أن بعضهم يستطيع البقاء سنواتٍ منفرداً.

وهناك من يمل من الناس، ويأنس بالوحدّة، على حين أن بعضهم لا يطيق الوحدة، ويأنس باللقاءات؛ وهناك من يأنس بهذا وهذا على حدٍ سواء.

وهناك من يأنف عادة معينة، أو أسلوب حياة واحد من نحو الملابس أو المطعم، أو المأكّل، أو الصحبة، أو نحو ذلك.

وهناك من يمل كل شيء؛ فلا يطيق الاستمرار على نمط واحد.

ويرى بعض الباحثين أن الشعور بالملل هو محصلة لعوامل مكتسبة، وعوامل وراثية، وعوامل ثقافية، وعوامل اجتماعية.

ويرى بعضهم أن الإنسان يستطيع تطوير قدراته في التعامل مع الملل؛ حتى يتقنه؛ وأنه ربما تمكّن أضيّق الناس صدرًا وخلقاً من الاستمتاع بالعزلة، وشغل وقت الفراغ في أعمال هادفة لو استخدم الأساليب الصحيحة.

ويرون أنك إذا لاحظت أنك تشتكي من الملل في حياتك فقد يكون سبب ذلك راجعاً إلى رؤيتك الخاصة للأمور.

وبعد فهذه نظرة عجلَى لبعض ما يُقرَّر في الملل، وأحوال الناس فيه.

والكلام ههنا ليس عن دراسة على الملل، وإنما هو توطئة لما بعده، وهو المقصود في هذا المقام، وهو مللٌ من نوعٍ خاص ناتجٌ عن ضيق عطن، وقلة شكر، ألا وهو الملل من المحاسن وكثرتها، ومن النعم ووفرتها.

ويدخل في ذلك أفراد كثيرة يصعب حصرها؛ فتجد من الناس من يعيش في مجبوحة من العيش؛ حيث يتمتع بالصحة الجيدة، والأمن الوارف، والرزق الواسع، وما جرى مجرى هذه الأمور؛ فتراه يأجم ذلك، ويملّه، ويرغب في الميل عنه، وقدماً قال المأمون: «إن من الراحة ما يملّ». وترى من يرزق بأولاد بررة صالحين يتمنى كثير من الناس لو رزق بأولاد أمثالهم. ومع ذلك ترى والدهم لا يرعى تلك النعمة؛ بل تراه يبحث عن أدنى زلة، أو تقصير يقع منهم بقصد أو بغير قصد.

وترى من يرزق بأصحاب خُلصٍ أوفياء يأنس بهم ويأنسون به، ويعينونه على كل ما يحتاج إليه، ويقدرّون هم عليه. وبدلاً من أن يعرضّ عليهم بالنواجذ، ويشيّ بالخنصر إذ هو ميل تلك الصحبة، ويبحث عن أدنى هفوة من أحدهم، فيزهد به، وينسى ما مضى من سالف الود.

وربما مال عنهم إلى غيرهم؛ فلقي صغاراً بعد شمم، وذلاً بعد عزّ، وشقاء بعد سعادة؛ فيتمنى لو رجع إلى تلك الصحبة بعد أن كدّر صفوها، وأثار العثّير في وجهها، على نحو قول ابن عرادة السعدي:

عُتبت على سَلْمٍ فلما فقدته وجَرَّبت أقواماً بكيت على سلم
رجعت إليه بعد تجريب غيره فكان كبرء بعد طول من السَّقم

فقد كان لابن عرادة صاحبٌ مكرّمٌ له، وكان ابن عرادة يتجنى عليه إلى أن تركه، وصحب غيره؛ فلم يحمد أمره؛ فرجع إليه، وقال البيتين السالفين.

وقد يجاور الإنسان كراماً من الناس؛ فلا يرى منهم إلا كل ودٍ ورقيٍّ، وقيام بحقوق الجيرة من نحو الإكرام، والنصرة، وكف الأذى، واحتماله؛ فيمل تلك النعمة، ولا يقدرها قدرها، ولا يرعاها حق رعايتها؛ إما بالتماس تقصير، أو اصطناع زلة؛ فيقطع حبال الود، أو ينتقل عن تلك الجيرة. وقد قال الحسن البصري رحمته الله لرجل أراد أن ينتقل عن جيرانه: «صبرك على من تعرف خير من استحداث من لا تعرف».

وقد يكون بعض الناس في عملٍ ما، وعند رئيس أو مدير فاضل يحرص على القيام بالعمل، وعلى الرقي بالعاملين، ومصالحهم؛ فلا يبالي بعض من تحت يده في شكر تلك النعمة؛ بل تراه ينغص على ذلك المدير، ويتغني عثراته، ويتمنى أن يحل محله شخص آخر؛ فإذا جاء غيره عرفوا قيمة الأول؛ فصار لسان حالهم كما قال الأول:

رب يوم بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه

وقد يعمل في بلده ، وبين أهله ، ويعيش في راحة بال ، واستقرار حال؛ فيمل ذلك ، ويسعى سعية لينتقل إلى بلد آخر؛ فيتغرب دون سبب يدفع إلى الغربة سوى الملل؛ فيلقى بعد ذلك ما يلقي من البعد عن الأهل ، وما يتصل بذلك من تبعات الغربة.

وقس على هذه النبذة ما شئت من النعم العظيمة التي تهدر ، وتكفر ، دون أن ترعى وتشكر ، لا لشيء سوى الكنود ، والبلادة ، والملل من المحاسن.

وكل ذلك مؤذن بتغير الحال ، وزوال النعمة كحال الذين قالوا ﴿ **باعد بين أسفارنا** ﴾ وقريب من أولئك من قالوا: ﴿ **لن نصبر على طعام واحد** ﴾ فكانت النتيجة تبدل حال ، وزوال نعمة ، وفجاءة نقمة؛ فهذا النوع من الملل نذير شؤم ، ومؤذن بلاء.

وعلى هذا تنزل وصايا الحكماء ، والحلماء التي جاءت محذرة من ذلك النوع من الملل ، موضحة سوء عواقبه ، مبينة منافاته لمقتضيات الشكر ، والمروءة ، ومكارم الأخلاق.

ومن ذلك ما جاء عن الصحابي الجليل ، والداهية الحكيم المجرب المحكك عمرو بن العاص حيث ورد عنه رضي الله عنه أحوالٌ وأقوالٌ في هذا الشأن.

ومن ذلك ما ورد عنه أنه لما كان والياً على مصر رؤي على بغلة قد شَمَطَ وجهها هرمًا؛ ف قيل له: أتركب هذه وأنت أكرم ناخرة⁽¹⁾ بمصر؟

فقال: « لا ملل عندي لدابتي ما حملت رَحلي ، ولا لامرأتي ما أحسنت عشتري ، ولا صديقي ما حفظ سري؛ إن الملل من كواذب الأخلاق ».

ويروى عنه -أيضاً- قوله: « ثلاثة لا أملهم: جليسي ما فهم عني ، ودابتي ما حملت رَحلي ، وثوبي ما سترني ».

وقوله: « لا أمل جليسي ما فهم عني ، وإنما الملل لدناءة الرجال ».

وقوله: « ألا إن الملالة من سيئ الأخلاق ».

وقوله: « إن الملل تكذبة للمروءة ».

وقيل إنه وجد في كتب الهند: « ليس لكذاب مروءة ، ولا لضجور رياسة ، ولا للملول وفاء ، ولا لبخيل صديق ».

وقال صريع الغواني في وصف حاله مع رجل ملّ من كثرة التردد عليه:

إني كثرت عليه في زيارته فملّ والشيء مملولٌ إذا كثرا

(1) الناخرة: جماعة الخيل ، يقال لواحدها: ناخرة ، وقيل: الناخر: الحمار ، ويروى: وأنت أكرم فاخرة.

قد رابني منه أني لا أزال أرى في عينه قَصراً عني إذا نظرا
وفي مقابل ذلك تجد من يمدح كرام الناس بترك الملل ، ولو كثرت زيارتهم - كما قال الطفيل
الغنوي - :

جزى الله عنا جعفرأ حين أزلقت بنا نعلنا في الواطين فزلت
هم خالطونا بالنفوس وأجأوا إلى حُجرات أدفأت وأظلت
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا تلاقي الذي يلقون منا مللت
سنجزى بإحسان الأيادي التي مضت لها عندنا ما كبرت وأهلت
ويقول ابن حبان البستي رحمته الله في شأن الملاة من الأصدقاء ، محذراً من ذلك الصنيع : « رأس المودة
الاسترسال ، وآفتها الملاة .

ومن أضع تعهد إخوانه حرم ثمرة إخوانهم ، وآيس الإخوان من نفسه .
ومن ترك الإخوان مخافة تعاهد الودّ يوشك أن يبقى بغير أخ ، كما أن من ترك نزع الماء إشفاقاً على
رشائه يوشك أن يموت عطشاً .

ولابن القيم في الفوائد كلمات نورانية في الكلام على الملل من المحاسن والنعم ، والتحذير من ذلك
الصنيع ، وبيان مغبته .

ومن ذلك قوله : « ومن لطائف التعبد بالنعم أن يكثر قليلها عليه ، ويستقل كثير شكره عليها ،
ويعلم أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذل فيهما ، ولا وسيلة منه توصل بها إليه ، ولا استحقاق
منه لها ، وأنها لله في الحقيقة لا للعبد ؛ فلا تزيد النعم إلا انكساراً وذللاً ، وتواضعاً ، ومحبةً للمنع .
وكلما جدد له نعمة أحدث لها عبوديةً ، ومحبةً ، وخضوعاً وذللاً .
وكلما أحدث له قبضاً أحدث له رضاً ، وكلما أحدث ذنباً أحدث له توبةً وانكساراً واعتذاراً ؛ فهذا
هو العبد الكيس ، والعاجز بمعزل عن ذلك ، وبالله التوفيق . »

وقال في فائدة تحت عنوان : « إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » : « من الآفات الخفية
العامة أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه ، واختارها له ؛ فيملها العبد ويطلب الانتقال منها إلى
ما يزعم لجهله أنه خير له منها .

وربه - برحمته - لا يخرج من تلك النعمة ويعذره بجهله ، وسوء اختياره لنفسه ، حتى إذا ضاق
ذرعاً بتلك النعمة ، وسخطها ، وتبرم بها ، واستحكم مله لها - سلبه الله إياها ؛ فإذا انتقل إلى
ما طلبه ، ورأى التفاوت بين ما كان فيه وما صار إليه - اشتد قلقه وندمه وطلب العودة إلى ما كان فيه .

فإذا أراد الله بعبده خيراً ورشداً أشهده أن ما هو فيه نعمةٌ من نِعَمِهِ عليه، ورضاه به، وأوزعه شكره عليه؛ فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه؛ استخار ربه استخارةً جاهلٍ بمصلحته، عاجزٍ عنها، مفوضٍ إلى الله، طالبٍ منه حسنَ اختياره له».

ثم بين أنه «ليس على العبد أضرار من ملله لنعم الله؛ فإنه لا يراها نعمة، ولا يشكره عليها، ولا يفرح بها، بل يسخطها، ويشكوها، ويعدها مصيبة، وهذا وهي من أعظم نعم الله عليه».

ثم أوضح عموم هذه الآفة، ووقوع الأغلّب فيها فقال: «فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمةً، وهم مجتهدون في دفعها وردّها جهلاً وظلماً فكم سعت إلى أحدهم من نعمةٍ وهو ساعٍ في ردّها بجهد، وكم وصلت إليه وهو ساعٍ في دفعها وزوالها؛ بظلمه وجهله!»

ثم ختم هذه الفائدة بقوله: «فليس للنعم أعدى من نفس العبد؛ فهو مع عدوه ظهير على نفسه فعده يطرح النار في نعمه، وهو ينفخ فيها؛ فهو الذي مكّنه من طرح النار ثم أعانه بالنفخ؛ فإذا اشتد ضرامها؛ استغاث من الحريق، وكان غايته معاتبة الأقدار» - هـ.

والحاصل أن الملل شعور طبعي يعتري الناس عموماً بمقتضى جبلّتهم. ولكن التمادي مع الملل؛ بحيث يمل الإنسان النعم التي يتقلب بها، والمحاسن التي تحيط به من كل ناحية - هو المصيبة المؤذنة بزوال النعم، وانقلاب المحاسن.

ثم إن على الإنسان ألا يستسلم لذلك الملل؛ بل عليه أن يقاومه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وعليه - كذلك - أن يعرف طبيعته؛ فإذا كان ملولاً ضجوراً فلا يُعرض نفسه للووم والثلب؛ بحيث يضعها في مواضع تُفقدُه صبره، ويكون فيها عالة على غيره.

وأذكر أن شخصاً ملولاً لا يطيق الاجتماع بأحد، وقد قال لي ذات مرة: أنا أحب الناس، وأتمنى لهم الخير، ولكني لا أطيق الاجتماعات؛ لذا آثرت العزلة حتى لا أكون كلاً على غيري. هذا وقد أرانا العياناً مثلاً في البعد عن الملل، والإعداد لكل حال لبوسها.

وقد مر بي من ذلك القبيل كثيرون، وأذكر منهم رجلاً من أهل الزلفي، وهو العم عبدالعزيز بن أحمد النصار رحمته الله الذي توفي في ١٠/٣/١٤٢٤ هـ عن أربع وسبعين سنة؛ حيث كان بعيداً كل البعد عن الملل مهما كانت حاله، وأذكر أنني دخلت المستشفى عام ١٤١٧ هـ لعارض صحي، ومكثت فيها أياماً.

وكان العم عبدالعزيز يرقد في المستشفى لأمراض تعتريه، وكان بجانبه في الغرفة، وجميع من معه في الغرفة أصغر منه، بل هم في سن أولاده.

وأكثرهم لا يشتكي مما يشتكي منه العم عبدالعزيز ، بل هم أقل منه؛ فأمرضهم عارضة ، ومرضه مزمن .

ومع ذلك لا تراه طيلة مكثه في المستشفى إلا هاشماً باشاً تالياً للقرآن ، أو ذاكراً لله ، أو مؤنساً لمن معه ، أو قائماً بخدمتهم بكل هدوء وسكينة .

وفي يوم من الأيام سألته ألا تريد من يسهر معك في الليل ، ويؤنسك في المستشفى ، فقال : «أنا بحمد الله لا أعرف ضيق الصدر ، ولا الملل أبداً» .

وقد سألت ولديه الصديقين الشيخ عبدالرحمن والشيخ عبدالمحسن -حفظهما الله- عن حال أبيهما؛ فأخبراني بما يقضي منه العجب من هذا القبيل .

وأذكر -كذلك- أن والدي ﷺ كان من أكثر الناس اجتماعاً وكثرة علاقات في بلده الزلفي ، وقد كان له مجلس في منزله يمتد من طلوع الشمس إلى قبيل الظهر ، وكانت له -كذلك- مجالس أخرى^(٢) .

ومع ذلك لم يكن يتبرم من الوحدة ولو طال عليه؛ بل يسعد بها سعادته بالاجتماع .
وأذكر أنه ﷺ سافر إلى الخارج؛ لألم شديد في عينيه؛ فأجريت له عملية جراحية فقدت على إثرها بصره ، ولما عاد رآته إحدى أخواتي بعد ما فقد بصره؛ فبكت ، وقالت له : «يا ليتني أعطيك إحدى عيني؛ لتبصر بها» .

فقال : «لا والله يا بني ما يرضيني ذلك؛ أنت مقبلة على الدنيا ، وعسى الله أن يمتعك بعينيك .
أما أنا فلا يهمني فقد بصري؛ فأنا - والله الحمد - لا يضيق صدري أبداً سواء كنت وحدي ، أو مع الناس» .
وشاهد ذلك -أيضاً- أنه كثيراً ما يدخل المستشفى في آخر حياته؛ بسبب بعض الأمراض؛ فلا تراه يتبرم ، أو يتضايق من وجوده ، أو شعوره ببعض الآلام؛ بل تراه راضياً مطمئناً حامداً شاكراً مسعداً لمن حوله من مرافقيه وزواره ، ولسان حاله كما قال الحكيم العربي :

لست ممن يفقد الأنس إذا أصبح الروض كئيباً أغبراً
لست أسى إن مضى ليلاً وما صاحب زار ولا طيف سرى
هو ذا الفكر يناجيني متى رُمّت أنساً ضحوة أو سحراً
وخلاصة القول أن الملل أمر يعترى الناس جميعاً ، وهم متفاوتون فيه ، وأن قلة الملل من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وأن وقوعه لبعض الناس في بعض الأحوال لا يستغرب ويذم .
أما المذموم من ذلك فهو الملل المستمر ، وأشده ما كان مللاً من المحاسن والنعم .

(٢) وقد فصلت الكلام في سيرته في كتابي (إبراهيم بن أحمد الحمد).